

اقبال و التغلغل فى اعماق الحياة

الاستاذ جعفر الخليلي

كرادة مريم ، بغداد

لا احسب ان احدا ممن يعرف القراءة والكتابة، و يعرف شيئا من الادب الاوعرف اقبال الشاعر الفيلسوف الباكستاني الخالد اوسمع به على الاقل، اما الذين اتوا النصيب الوافر من الثقافة فقد عرفوا هذا النابغة من آثاره معرفة كاسلة، بالاخص الذين اعتادوا ان يمعنوا النظر فى آثاره الادبية فى الاردوية او الفارسية، او ما قد ترجم له باللغات الحية لاسيما اللغة العربية .

و قليل من الشعراء الذين تعددت جوانب ثقافتهم، وحكت اشعارهم طائفة متنوعة من الافكار، والآراء، والفلسفة كمحمد اقبال الشاعر الفيلسوف الخالد، فضلا عما تتميز به اشعارهم من بلاغة القول، والسلاسة، وما هو مشحون به من المبتكرات الفنية، وان كل ناحية مما يرمز اليها شعره ليستوعب شرحها عدة كتب ان تكون موضوعات دراسة عميقة للجاسعات و على الاخص الجاسعات الاسلامية .

و من هذه النواحي التى تحتاج الى الاشارة هى دعوة للانسان بان يتغلغل فى اعماق الحياة، و يزيد من تأمله فى اسرارها لعله يدرك الشئ من ماهية هذه الحياة المجهولة الاسرار، ففى هذا التأمل فى مرافق الدنيا عبو حكم، و تجربة

و خبرة، لا ينبغي ان يهملها الانسان المدرك سواء توصل الى شئ من هذا ام لم يتوصل .

ولا شك ان اقبالا نفسه لا بد وان يكون قد وقف على الجبل وأطل منه على السهول ووقف على الشاطئ، واسعن النظر فيما يجرى في بطون البحار والانهار، ومن العوالم العجيبة الغريبة، ولا بد انه وقف في وسط الخمائل متأملا هذه الازهار والنباتات الناجمة من بطن الارض والمتفتحة البراعم، و اطرق يفكر في نفسه كواحد من هذه السلالة البشرية : من اين جاء؟ والى اين يغدو؟ وما هو السرفى مجيئه و سغدها؟ و هذا ما يستنتجه، و يستبينه القارى من شعره، لاجرم ان اقبالا وقف مثل هذه الموافق و سرح فكره في اعماق ما يراه، فكان له في كل وقفة استلهم، وكان له صوت، و كانت له نغمة، وله ابتسامته التى تعبر عن السخرية والازدراء، وله دسعته التى تعرب عن ادق المعانى، وكل ذلك يدل على ملكة وقدرة متغلغة في الوجود، ليس باستطاعة كل احد ان يمتلكها .

وها هوذا يسأل : هل سالت نفسك وانت تسحق هذا البساط المخملى من الورد الزاهر الزاهى، هل سالت نفسك من اين نجمت وبرزت هذه الكبود المتدققة بالدم القاني، والمصبوغة بلونه؟ فيقول :

درچمن قافلۀ لاله وگل رخت كشود از كجا آسده اند اين همه خونين جگران

وهو يرى ان على الانسان الذى يريد ان يعرف نفسه و يعرف الحياة ان يعد لذلك عدته، و ان عدته هذه عبارة عن اتقان الرؤية واتقان السمع، وان يتعلم السرعة فى الركض وراء العلوم، والا فانه سيقصر عن فهم الحياة واسرارها، لذلك يقول :

ديدن دگر آسوز، شنیدن دگر آسوز چون شعله خاشاك دويدن دگر آسوز
 اى تعلم كيف تمعن النظر فيما ترى، و تعلم كيف يكون سمعك واعيا
 عندما تسمع شيئاً، و تعلم كيف يجب ان تركض وراء الحقائق و هضمها ركض
 النار و سرعتها فى المهشم الياسر .

و مع ذلك فهو يرى ان الانسان قاصر عن بلوغ ما يريد، مادامت الطبيعة
 لم تجهزه بالعدة الكاملة فمثله مثل من يريد ان يصيد النمر والسباع بالصقر
 الذى يصيد به الطيور والغزلان، فكيف يستطيع ان يفهم اسرار هذه الحياة وهو
 لا يملك العدة الكاملة لذلك، يقول :

شاهين من بصيد پلنگان گذاشتى همت بلند و چنگل زين تيز تر بده
 و معنى ذلك اذا اردتني ان اصيد النمر والسباع فما بالصقر والباز يتم هذا الصيد،
 وانما يجب أن تعد لى مخالف أحد واقوى من مخالف الصقور وان تمكنتى من
 اللحاق بمثل هذا الصيد .

و بعد ذلك فالانسان بحاجة الى صبر طويل، وتجارب كثيرة تزيده علماً،
 وتمكنه من اسعان النظر في كينونته، و نشأته لى يفهم بعض الفهم شيئاً من
 سوجوده، و بعض الشئى - وان كان يسيراً - من اسرار هذه الحياة الغامضة
 المجهولة، ولذا يقول :

عمرها در كعبه و بت خانه مى نالدحيات

تا ز بزم عشق يك دانای راز آيد برون

و معنى هذا هو ان هذا العالم قد قضى طوال اعماره، داعياً، ستوسلاً، عابداً
 راکعاً، طائفاً بالكعبة، اوساجداً للاصنام لعله واجد واحداً له من القدرة على

كشفت سر واحد من اسرار الوجود فلم يحصل على نتيجة، ومع ذلك فان اقبالاً لا يكف عن دعوته الى التأمل في الحياة واعداد نفسه للغوص في اعماقها فيقول :

يك نظر آن گوهر نابی نگر تاج را در زیر سهتایی نگر

وقوله هذا يعني ان عليك ان تمنع النظر في هذه الجوهرة النفيسة المتلألئة في التاج - يعني بها الحقيقة - وهي تحت اشعة القمر لكي تدرك قيمتها، وتقدرها حق قدرها .

و حين تمنع النظر، تجد ان هذا النفس الصاعد النازل ليس الا اشعاراً وانذاراً - سواء أكنت اصغيت اليه ام لم تصغ - بان في قلب هذه الارض وباطنها، هذه الارض التي تمشي عليها تتجلى اسرار و اسرار من الجمال - و يعني به الحقيقة، و لكنك لم تتوصل الى رؤيتها وادراكها، وهذا هو مفهوم البيت التالي :

دم چیست پیام است شنیدی نشیدی

در خاک تو يك جلوه عام است نديدی

و يضيف الى ذلك استبعاده أن يكون الحاصل شيئاً غير الشكوك، و يضرب بذلك مثلاً، قصور بلوغ الصقر الاعالي، ان انت قصصت منه جناحيه، فخطب الصقر، متخذاً منه رسماً لطالب الحقيقة، قائلاً :

توای شاهین نشیمن درچمن کردی از ان ترسم

نوی او بیال تو دهد پرواز کوتاهی

ای انني اخشى ايها الصقر وانت تفترش هذه الخميطة الزاهية ان يسرك رواؤها

و بهاؤها ويؤول بك الأمر الى تقصير جناحيك فلا تستطيع ان تطير عاليا .

و يعزو اقبال هذه الشرور التي تعم العالم، والمحن التي يلقاها الانسان الى اولئك القاصرين عن فهم الحقيقة، والجهلاء الذين يطوحون بالبشرية و مفاهيمها، وانهم لو كانوا قد اتوا شيئا من الحكمة والمعرفة، لتوصلوا الى شئ من الحقيقة، ولسلم الناس من شرورهم، لان الشر كله كامن في هذه النفوس التي لم تدرك بعد المفاهيم من هذه الحياة، فيقول :

كم نكاهان فتنها انكيختند بنده حق را بدار آويختند

واغلب الظن انه يشير الى ما نزل بسقراط والحلاج وامثالهما كنتيجة لهؤلاء الذين جنوا على العالم لبعدهم عن فهم العالم و حقيقته .

و يدعو اقبال اهل المعرفة الى تحرير الفكر بنبد التقليد، و اعمال الفكر فيما يبدو امام الاعين من ظواهر هذا العالم و معالمه، فيقول الى متى وانت تطوف حول السراج كالفراشة لتحرق نفسك في المحافل بتلاوة الاوراد والاذكار، و ان الجدير بك ان تحترق بنارك، ان كان لك قلب يحس و يشعر و يحترق، وهذا هو مفهوم بيته القائل :

تاكجا طوف چراغ محفلى زآتش خود سوز اگر داری دلی

ولكن ما الفائدة ؟ و يقول اقبال والكثير من هؤلاء الناس قد جبلوا على الذل والعبودية فراحوا ينحتون لهم من الصخور اصناما يعبدونها، و يدعون هؤلاء الطغاة يستغلونهم فيلبسون الخز والحريز من كد هؤلاء الاذلاء واتعابهم، في حين يلبس هؤلاء الرث البالي من الثياب، و قد خليت نفوسهم من الهمة والعزة فعاشوا اذلاء ناكسي الرؤوس طوال اعمارهم، فكانه يريد ان يقول اين هؤلاء

من فهم حقيقتهم واين هولاء من فهم الحياة وادراكها؟ وقد حكت الايات
التالية رأى اقبال هذا احسن حكاية :

كشيري كه بابندگی خو گرفته
بتي ميتراشد ز سنگ سزاري
بريشم قبا خواجه از محنت او
نصيب تنشس جامه تار تاري
ضميرش تهى از خيال بلندی
زخود ناشناسى، زخود شرسارى

و يؤكد اقبال و جوب التأمل فى الحياة و مفاهيمها فى الكثير من اشعاره
من قبيل قوله :

نپندارى كه مرد استبحان مرد نميرد گرچه زير آسمان مرد

و بذلك يحذر و يقول اياك ان تظن ان الذى جرب الحياة و تعمق فيها قد مات -
وان يكن قد مات فعلاً - لان أسئال هؤلاء الذين يبحثون عن اسرار الحياة،
ويركضون وراء التجارب والاختبار لن يموتوا .

و بهذا القول يريد اقبال ان يكتفى المفكرون بقول الشاعر الفارسى الحكيم
الذى يقول :

ماز آغاز و ز انجام جهان بي خبريم
اول و آخر اين كهنه كتاب افتاده

اي اننا لا نعلم شيئاً عن مبداء هذا العالم ومنتهاه، فهو كالكتاب العتيق الذى
سقطت الورقة الاولى والاخيرة سنة فام يتسن لك ان تعرف اسمه او اسم
مؤلفه ولا حتى اسم من كتبه او طبعه .

ان اقبالا يؤمن بهذا القول كل الايمان كما يستبان ذلك من شعره،
و لكنه يريد ان لا يكتفى به الباحثون، ولا يصددهم عن الركض وراء الحقائق

الآخري والافادة من التجارب .

ثم يضيف اقبال ما يزيد التأكيد بوجود الاسعان في اسرار الدنيا واستخلاص التجارب والمعرفة منها فيقول . انك تخطئ اذا ظننت بأن سهمة العارفين من رجال الدين، و الحكماء قد انتهت، وانهم قد انهبوا مسيرتهم، فهناك آلاف من كؤوس الخمرة لم تزل تجرى في عروق الكرمة ولم تعصرها يد بعد، ولم تذقها شفة، فكأنه يريد ان يقول ان الحكماء والفلاسفة لم يزالوا في اول الطريق ولم يقطعوا من مسيرتهم حتى ولا مرحلة واحدة اذ يقول :

گمان سبركه پیايان رسید کار مغان هزار باده ناخورده در رگ تالك است

و بعد فهذا غيض من فيض اقبال في الحث على التأمل في الحياة، والاسعان في فلسفتها لاستخلاص التجارب، ولفهم الحقائق، والوقوف على بعض المكونات الى الحد الذي يصل اليه ادراك المتأمل، ودون الوقوف عند حد لدى الذين اتوا حظاً وافراً من العلم والمعرفة .

كل هذه يفرغه اقبال في شعر سلس، بليغ، جذاب، ليس فيه ذلك التعقيد الذي لم ينجح منه الشعر اذا ما تعرض للفلسفة والرموز، وفي هذا اللون من الشعر الفلسفي تتبين شاعرية الشاعر باجلى صورها، حتى في الافكار العميقة التي تحتاج الى شروح فيرسلها اقبال ببسطة مفهومة واضحة كقوله :

این خاک وانچه در شکم او از آن من

وزخاک تا بعرش معلی از آن تو

و من هذه الناحية، فضلا عن النواحي، يجد القارئ نفسه امام شاعر سبدع يحق للادب، والفلسفة، والمعرفة ان تفخر به، نابغة من نوابع الفكر، ذلك هو الشاعر العبقرى محمد اقبال الشاعر المسلم المؤمن الحكيم شاعر باكستان العظيم .